دراسات تطبيقة عن الانزياح اللغوي
وأثره في بنية النص الأدبي

وتشمل :

ـ نونية أبي البقاء الرندي.

obeikandl.com

obeikandl.com

يقول أبو البقاء الرندي (٤) :

لكـــل شـــــيء إذا مـــا تم نقصـــان

فـــلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنســـان

هـــي الأمـــور كمـــا شـــاهدنا دولٌ

مـــن ســـرَّهُ زمـــنٌ ســـاءته أزمـــانُ

وهـــذه الـــدار لا تبقـــي علـــى أحـــد

ولا يـــدوم علـــى حـــال لهـــا شـــانُ

يمـــزق الـــدهر حتمًـــا كـــل ســـابغةٍ

إذا نبـــت مشـــرفيات وخرصـــان

وينتضـــي كـــل ســـيف للفنـــاء ولـــو

كـــان ابـــن يـــزن والغمـــد غمـــدان

أيـــن الملـــوك ذوو التيجـــان مـــن

يمـــنٍ وأيـــن منـــهم أكاليـــلٌ وتيجـــانُ

وأيـــن مـــا شـــاده شـــدَّادُ في

إرمٍ وأيـــن ماساســـه في الفـــرس ساســـانُ

وأين مـــا حـــازه قـــارون مـــن ذهـــب

وأيـــن عـــادٌ وشـــدادٌ وقحطـــانُ

أتـــى علـــى الكـــل أمـــر لا مـــرد لـــه

حتى قضـــوا فكـــأن القـــوم مـــا كـــانوا

وصار ما كان مـــن مُلـــك ومـــن مَلـــك

كما حكى عن خيـــال الطيـــفِ وســـنانُ

دار الزمـــــان علـــــى دارا وقاتلـــــه

وأمَّ كســـــرى فمـــــا آواه إيـــــوانُ

كأنمـــا الصـــعب لم يســـهل لـــه ســـببٌ

يومًـــا ولا مَلـــك الـــدنيا ســـليمان

فجـــائع الـــدهر أنـــواع منوعـــة

وللزمـــــان مســـــرات وأحـــــزانُ

وللحـــــوادث ســـــلوان يســـــهلها

ومـــا لمـــا حـــل بالإســـلام ســـلوانُ

دهـــى الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاء لـــه

هـــوى لـــه أحـــدٌ والهـــد ثهـــلانُ

أصـــابها العـــينُ في الإســـلام فـــارتزأتْ

حـــتى خلـــت منـــه أقطـــارٌ وبلـــدانُ

فاســـأل بلنســـيةَ مـــا شـــأنُ مرســـيةٍ

وأيـــن شـــاطبةٌ أمْ أيـــن جيَّـــانُ ؟

وأيـــن قرطبـــةٌ دارُ العلـــوم فكـــم

من عـــالمٍ قـــد سمـــا فيهـــا لـــه شـــانُ ؟

وأيـــن حمـــصُ ومـــا تحويـــه مـــن نـــزهٍ

ونهرهـــا العـــذب فيـــاض ومـــلآنُ ؟

قواعـــدٌ كـــنَّ أركـــانَ الـــبلاد فمـــا

عســـى البقـــاء إذا لم تبـــق أركـــان

تبكـــي الحنيفيـــةُ البيضـــاءُ مـــن أســـفٍ

كمـــا بكـــى لفـــراق الإلـــف هيمـــانُ

حيث المساجدُ قد أضـــحتْ كنـــائسَ مـــا

فـــيهنَّ إلا نـــواقيسٌ وصـــلبانُ

حـــتى المحاريـــبُ تبكـــي وهـــي جامـــدةٌ

حـــتى المنـــابرُ ترثـــي وهـــي عيـــدانُ

يـــا غـــافلاً ولـــه في الـــدهرِ موعظـــةٌ

إن كنـــت في سِـــنَةٍ فالـــدهر يقظـــانُ

وماشـــيًا مرحًـــا يلهيـــه موطنـــهُ

أبعـــد حمـــصٍ تَغـــرُّ المـــرءَ أوطـــانُ ؟

تلـــك المصـــيبةُ أنســـتْ مـــا تقـــدَّمها

ومـــا لهـــا مـــع طـــولِ الـــدهرِ نســـيانُ

يـــا راكـــبين عتـــاقَ الخيـــلِ ضـــامرةً

كأنهـــا في مجـــال الســـبقِ عقبـــانُ

وحـــاملين ســـيوفَ الهنـــدِ مرهفـــةً

كأنهـــا في ظـــلام النقـــع نـــيرانُ

وراتعـــين وراء البحـــر في دعـــةٍ

لهـــم بأوطـــانهم عـــزٌّ وســـلطانُ

أعنـــدكم نبـــأ مـــن أهـــل أنـــدلسٍ

فقـــد ســـرى بحـــديثِ القـــومِ ركبـــانُ؟

كم يســـتغيث بنـــا المستضـــعفون وهـــم

قتلـــى وأســـرى فمـــا يهتـــز إنســـان

لمـــاذا التقـــاطع في الإســـلام بينكمُـــو؟

أنـــتمْ يـــا عبـــاد الله إخـــوانُ

ألا نفـــوسٌ أبيَّـــاتٌ لهـــا همـــمٌ

أمـــا علـــى الخـــيرِ أنصـــارٌ وأعـــوانُ ؟

يـــا مـــن لذلـــةِ قـــومٍ بعـــدَ عـــزِّهُمُ

أحـــال حـــالهمْ جـــورٌ وطغيـــانُ

بـــالأمس كـــانوا ملوكًـــا في منـــازلهم

واليـــومَ هـــم في بـــلاد الضـــدِّ عبـــدانُ

فلـــو تـــراهم حيـــارى لا دليـــل لهـــم

علـــيهمُ مـــن ثيـــابِ الـــذلِ ألـــوانُ

ولـــو رأيـــتَ بكـــاهُم عـــدَ بـــيعهمُ

لهالـــكَ الأمـــرُ واســـتهوتكَ أحـــزانُ

يـــا ربَّ أمٍّ وطفـــلٍ حيـــلَ بينـــهما

كمـــــا تفـــــرق أرواحٌ وأبـــــدانُ

لمثل هـــذا يـــذوبُ القلـــبُ مـــن كمـــدٍ

إن كـــان في القلـــب إســـلامٌ وإيمـــانُ

في هذه القصيدة الرائعة الخالدة يتحدث الشاعر عن دولة الأندلس ، ومجد العرب الداثر ، وكيف ضاع هذا الفردوس ، ولم يبق لنا منه سوى الأطلال والحسرات التي نتجرعها ،ولا نكاد نسيغها كلما عنت الذكرى ، وهبت رياح الماضي وكلما قرانا التاريخ ، وما يحمل في طياته من عظات باقيات ، وعبر موجعات ، في هذه القصيدة الرائعة

يتجلى الانزياح اللغوي واضحا متمثلا في عنصرين:

الأول: يخص المفردات اللغوية في تشكيلها الفردي العمودي :

ونقصد به تشكيلها داخل الجمل ، حيث يتم التغيير والخروج عن المألوف على مستوى الصياغة .

الثاني: المفردات اللغوية في بنائها العلائقي الأفقي :

ونقصد به ما يحدث من خرق وتغيير على مستوى العلاقات الإسنادية .

القصيدة من بدايتها تتضح فيها معالم العنصر اللغوي الأول في الانزياح اللغوي المتمثل في تشكيل مفردات لغوية محكومة بجمالية الصياغة ، فالفعل (يغر) .

لكـــل شـــــيء إذا مـــا تم نقصـــان

فـــلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنســـان

يحتل موقعا فريدا يشع على ما حوله إذ يحمل معنى التحذير من التمادي والاستمرار في الخلود إلى الدعة والراحة استنادا إلى رغد العيش وطيب الحياة .

وفي تقديم الجار والمجرور(لكل شيء) على المبتدأ المؤخر (نقصان) انزياح واضح أفاد الاهتمام بالمتقدم ، وعمومية النقصان وشموليته كل شيء في هذا الكون.

وكذلك وجود الشرط (إذا ما تم) بين المبتدأ والخبر خروج بالجملة عن المألوف ، والتقدير والترتيب المنطقي أن يقال : إذا ما تم كل شيء فلا بد أن يعروه النسيان ، غير أن الشاعر قصد إلى هذا الانزياح المعنوي بالخروج بالجملة عن المألوف وعن الترتيب الطبيعي إلى تسليط الضوء على حدوث النقصان في الأشياء .

كما أسلمه هذا التقديم المناسب في موضعه إلى ذكر الحكمة (فلا يغر بطيب العيش إنسان ، وكأني به يؤكد ما أتي به من تقديم وتأخير ، وحتى في الحكمة نفسها لم ينس أن يؤخر الفعل (إنسان) بغرض الإثارة والتشويق .

ويكون الشاعر- بهذا الانزياح المباغت في البيت الأول - قد مهد للولوج إلى بيان كارثة الأندلس وما حل بها .

وفي قوله :

وينتضـــي كـــل ســـيف للفنـــاء ولـــو

كـــان ابـــن يـــزن والغمـــد غمـــدان

التعبير بالفعل (ينتضي) في البيت الخامس يحمل معنى التحفز واتخاذ موضع القتال والعراك ، فما كان للدهر أن يقاتل ولكن اختراق اللغة جعل له أسلحة ينتضيها في مواجهة بني الإنسان .

والشرط في قوله : ولو كان ابن ذي يزن ، محذوف الجواب ، والتقدير لقاتله، والحذف هنا أوقع وأجدى إذ دل عليه وجود الفعل (ينتضي) في أول البيت ، ومفهوم أنه : لو كان ابن ذي يزن يحاربه لانتضى لقتاله .

أيــن الملــوك ذوو التيجــان مــن يمــنٍ

وأيـــن منـــهم أكاليـــلٌ وتيجـــانُ

وأيـــن مـــا شـــاده شـــدَّادُ في إرمٍ

وأيـــن ماسانـــه في الفـــرس ساســـانُ

وأين مـــا حـــازه قـــارون مـــن ذهـــب

وأيـــن عـــادٌ وشـــدادٌ وقحطـــانُ

انظر إلى تكرار اسم الاستفهام (أين) ، وما حدثه من دلالة ، إنه تكرار عن عمد وإصرار قصد به تعداد ما ضاع في الأندلس المفقود ن فقد ضاع الملوك العظام الذين كان يشار إليهم بالبنان كما ضاع ما شيدوه من عز جاه وحضارة يشهد بها الزمان ، وقد قاده هذا التكرار إلى الرجوع بذاكرته إلى الوراء فتذكر قارون وذهبه الذي فاق كل تصور وحد ، وتذكر ساسان وما شاده من ملك فارسي عريق ، وتذكر قحطان وإرم وعاد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ولسان حاله يقول مسريا نفسه من ألم : لقد فنى ملك هؤلاء جميعا وضاع ما كان لهم من سطوة وعز وسلطان كما ضاع الأندلس ، وذوت نضارته وانتهت دولته .

وفي قول الشاعر :

دهـــى الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاء لـــه

هـــوى لـــه أحـــدٌ وانهـــد ثهـــلانُ

الأفعـال : دهى ، هوى ، انهد أفعال ماضية تفيد التحقق ووقوع الشيء ، جاءت كلها في معرض الحديث عن هول الفاجعة وفداحة المصاب بعد هزيمة العرب وضياع الأندلس ، فجعل الهزيمة شيئا ماديا يهد ويفل ويدمر الحجارة الصلبة ، وهذا خرق للمألوف من الكلام .

أما تقديم الجار والمجرور في قوله (لـه) على الفاعل (أحد) ففيه ازياح لغوي يحمل دلالة خاصة قصد بها الاهتمام بالأمر الذي دها الجزيرة وأرق مضاجعها.

ثم انظر الانزياح اللغوي في قوله :

تبكـــي الحنيفيـــةُ البيضـــاءُ مـــن أسـفٍ

كمـــا بكـــى لفـــراق الإلـــف هيمـــانُ

لمثل هـــذا يـــذوبُ القلـــبُ مـــن كمـــدٍ

إن كـــان في القلـــب إســـلامٌ وإيمـــانُ

فقد أخر الفعل (هيمان) وأتى به بعد الجار والمجرور والمضاف إليه (لفراق الإلف هيمان) لدلالة ملموسة نجدها في التشويق والإثارة التي أحدثها هذا التأخير.

ولم يبدأ الشاعر في البيت الثاني بالفعل مؤثرا أن يكون الابتداء بالجار والمجرور في قوله (لمثل هذا يذوب القلب)، لأن هدفه وغايته التركيز على الفظائع التي حلت بالأندلس ، والتي من شأنها أن يذوب القلب لها كمدا وألما .

وفي قوله :

- تبكي الحنيفية البيضاء من أسف .

- يذوب القلب من كمد .

تصوير فيه خروج عن المألوف إذ جعل الحنيفية البيضاء (وهي شيء جامد) جعلها تبكي .

وقوله :

يـــا راكـــبين عتـــاقَ الخيـــلِ ضـــامرةً

كأنهـــا في مجـــال الســـبقِ عقبـــانُ

وحـــاملين ســـيوفَ الهنـــدِ مرهفـــةً

كأنهـــا في ظـــلام النقـــع نـــيرانُ

وراتعـــين وراء البحـــر في دعـــةٍ

لهـــم بأوطـــانهم عـــزٌّ وســـلطانُ

صيغة اسم الفاعل : راكبين وراتعين وحاملين بمالها من دلالة على الفاعلية والاستمرارية فبينت ما كان عليه العرب من يقظة وأهبة ومقدرة واستقرار ملك حتى وقع ما وقع .

وفي الأبيات الثلاثة انزياح يتمثل في تقديم الجار والمجرور (الخبر) على المبتدأ النكرة ، في قوله :

- في مجال السبق عقبان

- في ظلام النقع نيران

- لهم بأوطانهم عز وسلطان

ولعل غاية الشاعر من الخروج عن ترتيب الجملة ، التركيز والاهتمام بأشياء بعينها :

- التركيز على مجالات السبق
- والتركيز على هول المعارك وظلمات النقع
- والتركيز على الأوطان لما لها من أهمية

زد على ذلك ورود المبتدأ نكرة في كلمات : عقبان - طيران - سلطان بقصد الشمول والعموم .

وكذلك أساليب الاستفهام :

- ما شأنُ مرسيةٍ، وأين شاطبةٌ أمْ أين حيّانْ ؟
- وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ ؟
- وأين حمصُ وما تحويه من نزهٍ ، ونهرها العذب فياض وملآنُ ؟
- ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها همَمٌ ؟ أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ ؟

كلها جاءت في معرض التحسر والأسى . واستنهاض الهمم التي أصابها الخور والتخاذل والتفريط . فاطلخم الأمر . وتفرقت الأهواء . وتمزق الشمل فوقعت الطامة.

وفي ثنايا الاستفهام نلمح التقديم في قوله :

(سما فيها له شان) إذ المفروض القول : سما شان له فيها . لكنه آثر الخروج عن المألوف وترتيب الجملة الطبيعي ليسلط الضوء على قرطبة التي كانت حاضرة العلوم والمعارف آنذاك . ثم انظر إلى التكرار المقصود لاسم الاستفهام

(أين) وما فيه من دلالة على فقد الأماكن : مرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وحمص ، وكلها معالم مشهورة في الأندلس الرطيب الذي افتقدناه وضاع من بين أيدينا .

والشيء نفسه في التقديم في قوله :

(ألا نفوس أبيات لها همم) فقد قدم الجار والمجرور (لها) على كلمة (همم) وذلك للتركيز على هذه النفوس الأبيّات التي كان ينشدها الشاعر ويريدها .

وفي قوله :

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ

ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ

لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

يا ربَّ أمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما

كما تفرق أرواحٌ وأبدانُ

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ

إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

انزياح ملموس نلمحه في :

- **عليهم من ثياب الذل ألوان :** تقدم الجار والمجرور (عليهم) على المبتدأ (ألوان) وذلك للتركيز على المتقدم (هم) أي أهل الأندلس وما آل إليه حالهم من ذلة ومهانة .

- **مالك الأمر، واستهوتك أحزان** : انزياح ماثل في تقديم المفعول به (الكاف) على الفاعل (الأمر) ، (أحزان) قصد به إثارة شفقة المخاطب والاهتمام به .

- **أما الانزياح في قوله** : يارب أم وطئل حيل بينهما فواضح في بناء الفعل للمجهول وحذف الفاعل ، وذلك للعلم به ، لكونه معلوما ، فكلنا يعلم أن الذي فعل كل هذه الأفاعيل هم الأوربيون المعتدون .

- **وفي البيت الأخير تقديم في قوله** :

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ

- **وفي قوله** :

إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

فتأخير الفعل (يذوبُ) عن الجار والمجرور والمضاف إليه (لمثل هذا) يدل شدة ألم الشاعر مما حدث للأندلس ، لذلك يعنيه ويؤثره عن البدء به رغم ما في ذلك من خروج عن المألوف.

- وتأخير اسم كان (إسلامٌ) عن خبرها (في القلب) انزياح غرضه التأثير في المخاطب وإثارة وجدانه .

أما في المجال البناء العلائقي للمفردات فنلمسه في :

- الاتكاء على صيغة الفعل الماضي في تشكيل الخطاب الشعري ، إذ ورد في ثمانية وثلاثين موضعا ، كونه ركنا أساسيا في بناء الجملة الفعلية التي أشاعت حالة التحسر والرثاء وأكدت وقوع كارثة ضياع الأندلس .

- **وفي أساليب الاستفهام** :

– ما شأنُ مرسيةٍ، وأين شاطبةٌ أمْ أين حيَّانُ ؟

- وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ ؟
- وأين حمصُ وما تحويه من نزهٍ ، ونهرها العذب فياض وملآنُ ؟
- ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها همَمٌ ؟ أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ ؟

- استند إليها الشاعر في تكوين بنية القصيدة ، فكانت (ما وأين والهمزة وغيرها من الأدوات) وسائل ربط وطدت العلاقة داخل النسيج الشعري ، وأحدثت دلالات التحسر

التحسر والأسى ، واستنهاض الهمم التي أصابها الخور والتخاذل والتفريط ، فاضطلخم الأمر ، وتفرقت الأهواء ، وتمزق الشمل فوقعت الطامة ، ثم كان لوجود الأساليب الإنشائية إلى جوار الخبرية أثره الواضح في تنوع الخطاب وإثارة الانتباه.

- وفي وصف الملوك بأنهم(ذوو التيجان) ، وقرطبة بـ (دار العلوم) ، ووصف الحنيفية بـ (البيضاء) ، ونفوس بـ (أبيات) ما يمكن إدراجه ضمن جمالية الفائض الوصفي، الذي يهدف إلى تعميق الوعي بالذات التي تعيش مأساة نفسية عميقة .

من هذين العنصرين : المفردات اللغوية في تشكيلها الفردي ، وفي بنائها العلائقي يتحقق الانزياح الشعري الذي يشكل بدوره هيكل القصيدة الشعرية .

الهوامش

(١) المعجم الوسيط ، ج ١ ص ٤٢١

(٢) اللغة والخطاب الأدبي ، اختيار وترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، بيروت ط١ ١٩٩٣ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٠

(٤) الأدب الأندلسي ، دكتور أحمد هيكل ، دار المعارف ١٩٧١.

obeikandl.com